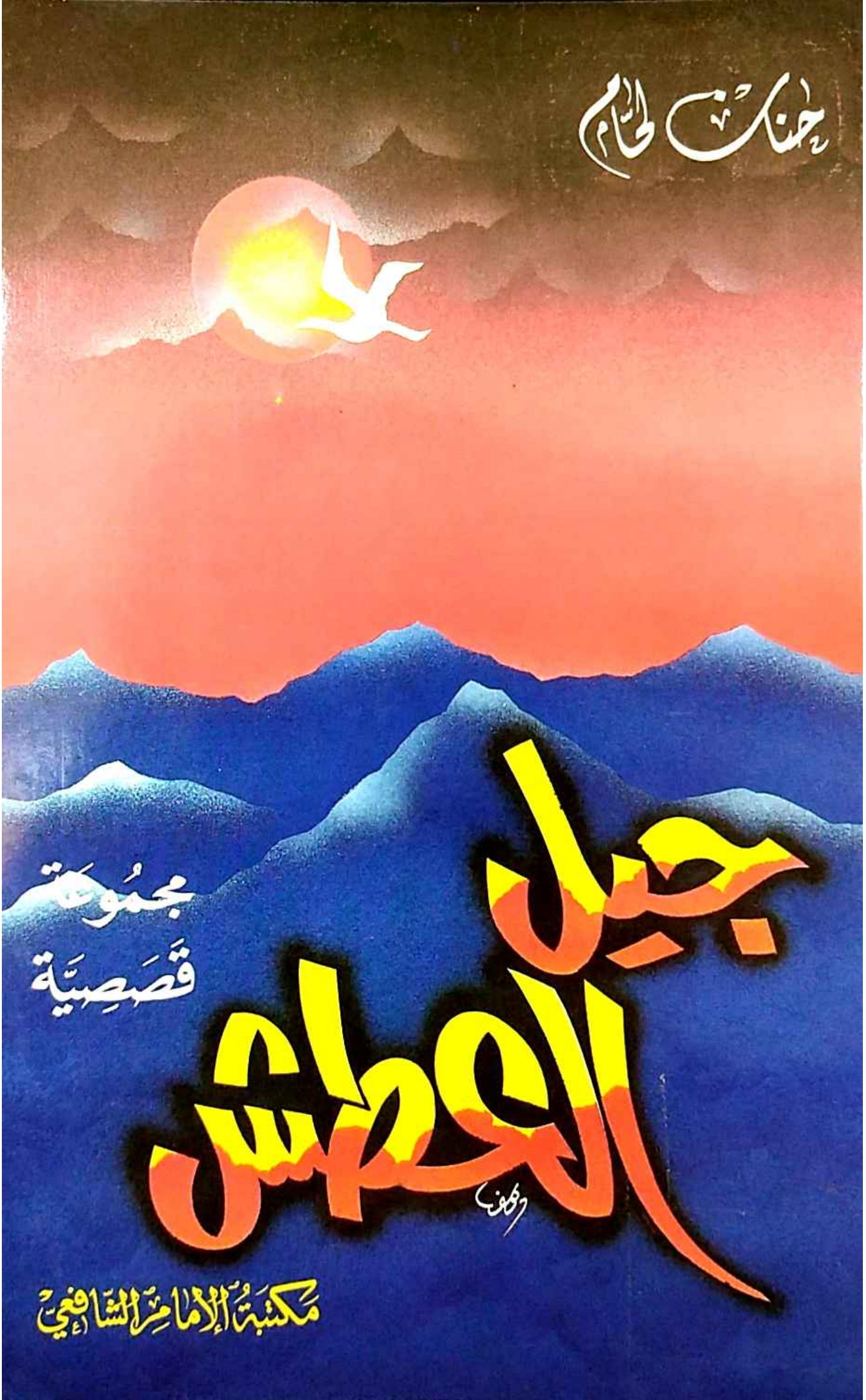

حنان لحام
جبل العطش
مجموعة قصصية
مكتبة الإمام الشافعي

مجموعة قصصية

جيل العطش

حنا لحام

مكتبة الإمام الشافعي

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحْفُوظَةٌ

الطّبعـة الثانيـة
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

مكتبة الإمام الشافعي
ص. ب ٢١٨٧ ـ الرياض ١١٤٥١
السعودية ـ هاتف ٤١١٨١١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

بسم الله، الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى . .

هذه لقطات واقعية من حياة المرأة في عالمنا. منها المضيء المشرق، ومنها المعتم المؤلم، أردت أن ألفت النظر إليها؛ لعلها تعين على مراجعة النفس والتبصر في العواقب؛ فلطالما تألمت من وضع المرأة في عالمنا وما تعانيه من بخس، ولطالما تمنيت لها مكانة أرقى وحظاً أوفى.

ولكن كيف تتغير الصورة؟!

من أين نبدأ؟

هل نستمر في إلقاء الخطب؟

هل نستمر بالتنديد بالأوضاع السيئة؟!

هل خرجنا من ذلك كله بما يسد الرمق؟!

أختاه . . أنت منبع الخير والحنان . . أنت مصنع الأجيال وأمـــل المستقبـــل . . فلا تبخسي نفســك . . ولا تضيعي دورك . . فما أعـــظم خســـارة الأمـــة إن بددت مواهبـك وانجرفت مع تيار الضياع ! !

أنت المعلم الأول للمحبة والعطاء والإيثار؛ فلا تحرمي الأمة من هذا الغذاء .

لن أنسى ما سجله الرئيس الروسي السابق غورباتشوف في كتابه (إعادة البناء) من ملاحظات عن المرأة الروسية . فهـو يشكـرهـا من جانب على مساهمتها الفعالة في الثورة والإنتـاج المـادي ولكنـه يقول بأن ذلك قد أدى إلى إهمال شؤون الأسرة ورعـاية الجيل فإزداد التفكـك الاجتماعي ، وارتفعت نسبة الجريمة في شباب الأمة .

أختـاه . . إن دورك الاجتـماعي والـتربوي جليل ، ولا يمكن أن ينوب عنك فيه أحد ؛ وماذا نستفيد من الإنتاج المادي إذا خسرنا الإنسان ؟ !

فلا تبخلي على الأمة بالجهد والاجتهاد في صناعة إنسانها الجـديد ، ولا يصـدنـك عن ذلـك جحود الناس أحياناً ،

واستعلاء الرجل في بعض الأحيان؛ فإن التاريخ لا يهمل في تسجيل النتائج وإعطاء الثمار.

﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾. [النساء: ٤٠].

حنان لحام

١١/ ١٤١٢هـ - ٥/ ١٩٩٢م

جيـــل العطـــش

رنـين ملحـاح يتعـالى شيئـاً فشيئاً وينتشلني من سبات عميق؛ فتحت عيني، مازال الظلام دامساً وجرس الهاتف يدق في دأب؛ قفزت من فراشي وقلت في نفسي لعلها مكالمة خارجية في مثل هذا الوقت؛ رفعت السماعة؛ فانتهى إلى سمعي صوت أنثوي لطيف، فقلت: من تريدين؟

ـ قالت بلهجة لا تخلو من ارتباك: أعطني أخاك من فضلك.

ـ قلت باستغراب وذهني مازال نائماً: من أنت؟

ـ صديقته.. !!

كنت أحاول أن أوقظ إدراكي الذي أوهنه قرص المسكن المضاد للحساسية الذي تناولته قبل النوم. وقلت بعد لحظة حيرة:

ـ أخي لا يسكن معي، لعلك مخطئة في الرقم.

ـ إذن أعطني أي رجل في البيت.

ـ آسفة إنني في البيت وحدي؛ ما الرقم الذي تريدينه؟

أجابت بتردد: لا أدري.

جاءني صوتها وفيه الكثير من الحيرة والرقة. أحسست به يقرع قلبي. ولقد أدركت أخيراً أنها فتاة أرِقة تعاني من أزمة، تهرب منها بالعبث بالهاتف. وصدرت مني ضحكة خفيفة وقلت:

ـ حسناً.. فهمت.. يبدو أنك متضايقة تعانين من الأرق ومحتاجة إلى من يحاورك؛ فهل أستطيع أن أؤدي هذا الدور وأتحاور معك بدلاً من الرجل الذي تطلبين؟!

ـ بكل سرور.. ردت وقد انتعش صوتها بشيء من الحيوية ثم قالت: يدهشني لطفك؛ إنك أول امرأة ترد علي في الهاتف ولا تشتمني!!

ضحكتُ وقلت: ولكن من أين لك رقم هاتفي؟!

ـ أنا لا أعرفه، ولكن أفتح أرقاماً لا على التعيين لعلي أعثر على من أكلمه.

ـ ولم تطلبين رجلاً بالذات للحوار؟!

ـ لأن أكثرهم يسرون بالتحاور مع امرأة أو فتاة، أما المرأة فتسد الطريق في وجهي؛ قبل قليل ردت عليّ امرأة وقالت لي: ياقليلة الـذوق ألا تنـظرين في ساعتـك؟! وأغلقت السماعة في وجهي.

ضحكت وقلت: بالمناسبة كم الساعة الآن فإن ساعتي ليست بيدي؟

ـ أوه.. لا تجعلني أخجل من نفسي.

ـ فاستدركت معتذرة؛ وقد أدركت أن محدثتي ذكية وفيها بقية أصالة فقلت: لم أقصد ذلك.. صدقيني إنه سؤال بريء.

ـ الساعة الثالثة صباحاً؛ آسفة للإزعاج. قالتها بنبرة ندم.

ـ لا عليك؛ والآن حدثيني، ماالذي يضايقك؟

تنهدت وقالت:

ـ الوحدة.

ـ أليس لك إخوة أو أخوات؟!

ـ الكبار متزوجون وليس في البيت إلا أخ صغير في المرحلة الابتدائية.

ـ كم عمرك؟
ـ عشرون عاماً.
ـ وأبواك هل هما موجودان؟
ـ أبي يخرج من الصباح إلى المساء في عمله وقلما يجلس معنا؛ والبيت بالنسبة له: طعام ونوم، وأمي امرأة قاسية متزمتة.. ساخطة دائماً عليَّ، ولا يعجبها شيء من تصرفاتي، وليس لديها إلا أوامر.
ـ وإلى أين وصلت في المدرسة؟ قالت بحسرة:
ـ في العام الماضي رسبت في امتحان الشهادة الثانوية.
ـ هذا مؤسف، ولكن الحياة فيها النجاح وفيها الفشل، وعلينا أن نواجه الأمر بقوة.
ـ أنوي التقدم للامتحان مرة ثانية في هذا العام بشكل حر دون التزام بمدرسة.
ـ هذا حسن، وفقك الله..
ـ ولكن لا فائدة، لا أستطيع الدراسة، أعاني من الشرود والكآبة، أقضي ليلي في الأرق، فإذا غلبني النوم في الصباح انتهرتني أمي وهي توقظني وتقول: ألم تشعبي من النوم؟!

وهي تظن أنني نمت الليل بطوله.

ـ ولم لا تحدثينها عما بك؟!

ـ لا يمكن أن تسمع لي، أو تفهم مشاعري!!

ـ لعلها عاملة مشغولة بوظيفتها؟

ـ ليست موظفة، ولكنها تخرج غالباً لزيارة صديقاتها والجيران؛ وتطالبني بالقيام بأعمال البيت، وتعيّرني بمقارنتي مع الفتيات الأخريات الناجحات في الدراسة، والماهرات في أعمال البيت؛ لم أرها يوماً منشرحة تتبسط معي في الكلام، أو تسألني عن حالي.

ـ لعلها هي الأخرى تعاني من مشكلة، أو أصيبت بخيبة أمل في جانب من جوانب حياتها؛ هل هي سعيدة في حياتها مع والدك؟

ـ أحس وكأن كل واحد منهما في عالم مختلف عن الآخر؛ أبي لا يبالي ـ كما قلت ـ بشؤون البيت، فإذا ماحدثت مشكلة فيه صبَّ جامّ غضبه علينا، وأمي لها عالمها المنبثق من مزاجها السوداوي الساخط، فهي ناقمة على كل شيء، وليس لها حديث إلا عيوب الآخرين ونقد الجيران والمعارف.

ـ مسكينة.. هل حاولت أن تفتحي لها قلبك وتقفي إلى جانبها؟

ـ قالت بنبرة استغراب: أنا..؟ وهل فتحت لي هي صدرها؟!

هي الأم ولست أنا..!! لقد نصبت بيني وبينها جداراً لا يمكن اختراقه.

ـ ولماذا ننتظر المبادرة من الآخرين؟ لمَ لا نحاول أن نبدأ نحن باختراق الجدار؟

ـ وكيف؟!

ـ لمَ لا تتوددين إليها من خلال أمر تحبه؟

ـ لم أفلح؛ حاولت مرة أن أسرّي عنها؛ فدرت حولها ورقصت وغنيت لها، فانتهرتني غاضبة. دعوتها مرة إلى فنجان قهوة، فأخذت تحدثني عن عذاب الله وجحيمه الذي ينتظر أمثالي، فتركتها وعدت إلى وحدتي.

كنت أفكر أثناء الكلام وأسأل نفسي: كيف أتوقع من فتاة في العشرين تمر بأزمة وتحتاج إلى من يساعدها أن تقوم بدور الطبيب النفسي مع أمها؟!

ولهذا آثرت تغيير المسار لعلي أنجح في مساعدة الفتاة فقلت:

ـ أليست لك هوايات؟ هل تحبين القراءة مثلاً؟

ـ أحب قراءة الأدب والشعر كثيراً.

ـ عظيم.. حدثيني عما تقرأين؛ وبمن تعجبين، فأنا أحب الأدب أيضاً.

ـ يعجبني جبران خليل جبران ونزار قباني.. وقرأت عليّ شعراً رقيقاً أشعرني بذوقها المرهف وحسها الأدبي.

ـ قلت: من كان مثلك في حب الأدب لا يشعر بالوحدة؛ فخير صديق في الأنام كتاب.

ـ ولكني كثيراً ما أقف عاجزة حتى عن القراءة؛ الشعور بمرارة الوحدة يعصر قلبي؛ لقد قلت لي أنك وحيدة في البيت؟ ألا تشعرين بمرارتها؟!

ـ أبداً بل كثيراً ما أهرب إليها.

ـ أشعر أنني كنت أنانية بالحديث عن نفسي، ألا تحدثيني عنك؟!

ـ لا بأس، أنا في مثل عمر أمك.

ـ عجباً إن صوتك لا يوحي بذلك!!

ـ ضحكت وقلت: أشكرك على هذه المجاملة.

ـ وهل أنت متزوجة؟

ـ متزوجة وعندي أولاد تزوجوا جميعاً، وزوجي مسافر.

ـ كيف لا تزعجك الوحدة؟!

ـ عندي هدف كبير أعيش من أجله؛ ألم تفكري يوماً ما بأن يكون لك هدف في الحياة؟

ـ مثل ماذا؟

ـ انظري حولك ألا ترين الناس ومتاعبهم؟! لِمَ لا تكون الحياة أفضل وأقلَ معاناة؟! وكم يكون جميلاً أن نعيش من أجل إسعاد البشر ورفع مستواهم؛ بل أن تفكري في نفسك وكيف تصلين إلى الارتقاء والسعادة قبل أن يفوت قطار العمر...!!

ـ هل تعنين الزواج؟ إن الذين من حولي يوحون إليّ أن الزواج هو الهدف؛ مارأيك؟

ـ الزواج ليس هدفاً؛ ولكنه واحة ظليلة منّ الله بها علينا لنستروح فيها ونحن نكافح للوصول إلى أهدافنا.

ـ ولكن قلوبنا يملؤها الحنين إلى الحب؛ وإن صدمتنا الحياة الواقعية.

ـ يبدو أنك عانيت في هذا المجال؟ تنهدت وقالت:

ـ نعم في العام الماضي أحسست برياح الحب تجتاحني وكنت ألتقي به في كل يوم؛ ويرقص قلبي على وقع كلماته الدافئة الحنونة.

ـ وطبعاً لم يعرف أهلك عن هذا شيئاً؟

ـ بالطبع؛ لا يمكن أن يتفهموا أحاسيسي.

ـ ماذا حصل بعد ذلك؟

ـ لقد افترقنا..

ـ ومن كان البادىء في الجفاء؟

ـ أنا.. لقد اكتشفت قبل فوات الأوان أنه يُسمعني الكلام المعسول كي يصل إلى غايته ثم ينبذني..

ـ الحمد لله، ينبغي أن تسعدي وتحمدي الله على نجاتك من هذا الذئب...، تنهدت بحرارة وقالت:

ـ ولكني لا أستطيع أن أنساه رغم كل ذلك.

ـ لا ياعزيزتي.. إنك تستطيعين، وليس في الدنيا رجل

يستحق منك أن تذيبي شمعة شبابك من أجله؛ لقد خلقنا لشيء أعظم من ذلك..

ـ كيف؟!

ـ هل جربت أن تلجأي إلى الله؟ وعندما يصيبك الأرق لَمَ لا تحاولين قرع باب السماء بدلاً من قرع أجراس الهاتف؟!

ـ صدقيني ياخالة.. ان الخجل من الله يمنعني من ذلك.

ـ لعلك لم تجربي الصلاة.

ـ أصلي أحياناً في رمضان؟ ثم أتكاسل وأحس بالذنب؛ أنا مقصرة في طاعة الله فكيف ألجأ إليه؟

ـ سبحان الله! إن لك نفساً رقيقة يا ابنتي؛ ولكن الله ليس كالبشر، إن الناس لا تسامح ولكن الله لا يوصد أبوابه في وجه أحد. إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، وبالنهار ليتوب مسيء الليل.

ـ لا أجد الجرأة في نفسي على ذلك.

ـ جربي وستجدين الأمر أسهل وأحلى مما تتصورين. صدقيني إن الناس كلهم لن يفهموك، أو يقدروا ظروفك، وحين تلجأين إليهم فمنهم من يقطع عليك الطريق، ومنهم

من يستمع إليك وهو يسخر منك؛ ومنهم من يحاول استغلالك لمآربه، ولن تجدي الدواء إلا عند الله؟ ولن تحسي بالترحاب إلا بين يديه، أقول هذا عن تجربة.

ـ عفواً ياخالة؛ لا تنسي أنك وصلت إلى بر الأمان بعد أن تزوجت وحصلت على الحب؛ ألم تجربي الحب؟ إن الحياة قاحلة مريرة بدونه.

ـ أنا معك فيما تقولين؟ ولكن هل تحبين أن تسمعي خلاصة تجربتي؟

ـ أتلهف إلى ذلك؛ إنني أحس أنك تتمتعين بسكينة أتمنى أن أصل إليها.

ـ حسناً يا عزيزتي؛ إن الزواج آت، والحب آت فلا تستعجلي، وخذي لنفسك فرصة تستعدين فيها للقيام بمسؤولية الأسرة، فإن الزواج عطاء وإيثار وتفان؛ وليس مجرد استمتاع بالحب؛ وتبقى الحياة أغلى من أن تكرس لرجل، وتحقيق الذات أعلى من الركض وراء الجنس الآخر.

ـ وماذا يعني تحقيق الذات بالتحديد؟

ـ أن يكـــون لي هدف أسمى أعيش من أجله وأخـطط للوصول إليه.

ـ هل لي أن أسألك عن هدفك؟

ـ في رأيك، ما الشيء الذي يستحق أن نبذل فيه جهدنا؟

ـ الوصول إلى السعادة.

ـ حسن جداً وأنا هدفي أن أصل إلى السعادة عاجلاً وآجلاً.

ـ وهل وصلت إلى ذلك؟

ـ أستطيع أن أؤكد أنني حققت قسطاً وافراً يبشرني بالمزيد.

ـ وأين وجدت السعادة؟

ـ في الحياة مع الله وفي كنفـه؟ وجـدت الناس مشغولين عني، كلّ يعنىٰ بنفسه، فلجأت إلى رب الناس؛ ورأيتهم لا يقدرون مشاعري، ولا يفهمون ظروفي فاتجهت إلى من لا يعزب عنه مثقال ذرة؛ وتحققت أنهم لا يقدرون على منحي ما أريد من حب ورعاية فأسرعت إلى من يقدر على كل شيء ولا يبخـل بشيء، بحثت عن الحب الحقيقي فوجدت أن النـاس إذا أحبوا أخذوا؛ ولكن الله إذا أحب أعطى بغير

حساب؛ هل أتابع أو أن حديثي أصبح ثقيلاً؟

ـ بل أرجوك تابعي.

ـ إن قلبك يضج من الظمأ؟ ولن تهدأ النفس حتى يرتوي هذا الظمأ؛ ولكن أين الماء؟! وهل استطاعت الدنيا بحذافيرها أن تروي ظمأ إنسان؟ كثيرون أحسوا بالظمأ وتطلعوا باحثين عن الري.. وهرولوا وراء السراب؛ هربت منهم الأيام والسنون وهم يطاردون الأوهام؛ ألم يعترف أحد الشعراء بالحقيقة حين قال: (أنا من ضيع في الأوهام عمره؟!) كل إنسان مشغول بظمأ نفسه، فهو بالتالي أعجز من أن يحقق الري الكامل لغيره، لا أنكر حب الوالدين وحدبهم.. ولا حنان الأولاد ومودة الأزواج، ولا حب الإخوان والأصدقاء، ولا عطف العلماء والمربين، كل ذلك يعطي بعض الرضى، ويروي بعض الظمأ، ولكن العطش أكبر من ذلك كله.

وإذا أزعجني سكوتها سألتها: هل أنت معي؟

قالت بصوت متهدج: أجل.

وخُيِّل إليّ أنها تلتقط دموعها فقلت: إنك تحبين الشعر.

هل أسمعك بعضه؟

ـ ليتك تفعلين.

ـ يادامع العينين لا تحزن على هذا السراب
من لم يكن في الخلد مسكنه فمأواه التراب
الشمس تؤذن بالغياب والراحلون إلى إياب
من لم يكن في الفلك أدركه الغرق
وطواه تيار الظلام وغاب في لجج الغسق
الشمس تؤذن بالغياب والراحلون إلى إياب
فإلى متى؟ وإلى متى ياقلب تغشاك الظنون

مارأيك؟

ـ رائع لم أسمع هذه النغمة من قبل!

ـ ألم تقرأي ديوان (مع الله) للأميري؟ إن فيه نغمات حلوة..

ـ سأحاول الحصول عليه؛ ولكن خبريني بالله عليك هل

عانيت من مثل ما أعاني؟

ـ قد لا تكون معاناتي مثل معاناتك تماماً، لكنني مثلك؟ لم يستطيع أبواي أن يفهماني، ويقدما لي الغذاء الذي كنت أتطلع إليه؟ ولا ألومهما إذ لم يكن لديهما العلم الكافي لتقديم ماهو أكثر من الطعام والمأوى وبعض العواطف والتوجيهات الهزيلة، ولكن ياعزيزتي: عشت قرابة خمسين عاماً ذقت فيها حلو الحياة ومرها، أصابتني فيها محن وعانيت من الظمأ. . واستمتعت بأنواع من الحب؟ ولكنني لم أجد الري الحقيقي إلا في مناجاة الله؛ ففي لحظات الضيق والكرب لم يكن يفهم عليَّ أحد غير الله. ولم يكن بإمكان أحد أن يقف إلى جانبي ويلبي ندائي إلا هو. .

لقد استمتعت بلحظات من الحب الخالص لهذا الرب الذي لم يكن يتخلى عني مهما أذنبت.

والذي كنت أحس براحة اللجوء إليه كلما تعبت؟ أبواب الناس تغلق، وبابه لم يغلق في وجهي لحظة.

والناس معرضون جاحدون؛ لسان حالهم يصرخ:

نفسي.. نفسي، والله باسط يديه في آناء الليل وأطراف النهار ينادي عباده: عبدي!؟ تعالَ إليَّ أقضي حاجتك وأمنحك الراحة والحب.

﴿فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾. [البقرة: ١٨٦].

﴿ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى﴾. [طه: ١٣٠].

ومن المؤسف أن تشغلنا الدنيا عن هذه اللحظات المشعة التي تغسل القلب من عنائه وتمنحه الري بعد الظمأ، إنها لحظات يعيشها المؤمن في كنف الله فيمتلىء قلبه بالجلال والجمال، ويستمع إلى تسبيح الكون يلهج بالثناء والحب لمبدع الجمال.

في تلك اللحظات الصافية أسمع تغريد عصفور حطَّ على نافذة غرفتي، فأحس بأنه ينقل إليّ رسالة حب، أفهم حبوره، وأحسّ بأن الله أرسله إليّ ليناجيني ويملأ قلبي بالاستمتاع بالجمال. وعندما أخرج من البيت تحييني نبتة الريحان التي ترعرعت في مدخل البناء بعيونها الخضراء

النضرة فأقترب منها وأمر بيدي على وريقاتها بلطف، فترد التحية بأحسن منها عطراً يعبق في الجو ويملأ كفي بالعبير فأود لو أعانقها بحنان، وأحس بأنها تحية حب أنعم علي بها الرحمن.

﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله﴾. [البقرة: ١٦٥].

أتطلع إلى السماء وقطع من الغيوم البيضاء تسبح فيها بجلال، فأحس بروحي وكأنها تمتطي الغيوم وتطير مسرعة إلى الله، ولكن وا أسفاه! ما أشد ثقل هذا الجسد!! إنه غالباً ما يحرمنا من الاستمتاع بهذه اللحظات المتألقة إنه يلهينا عن الاهتداء والارتواء من هذا الماء المعين وهكذا يبقى الإحساس بالظمأ يطاردنا؛ ويبقى الناس في ركض ولهاث وراء السراب والأوهام.

﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ [محمد: ١١].

ترى هل استطعت أن أمنحك (تهليلة للنوم)؟! قلت ذلك وأنا أضحك؛ فأجابت بتأثر:

ـ بل لعلك أيقظتيني من الغفلة.

ـ حقاً؟! كم يسعدني أن أمنحك بعض السعادة؛ وأتمنى أن تحسي بالجمال وتجدي العزاء في كل ماأبدعه الله من حولك؛ مارأيك الآن أن تجربي فتقومي لأداء ركعتين في جوف الليل؟ أسأل الله أن يمنحك فيهما لحظات من الري في كنفه وتحت ظلاله الحانية؟ فإن حب رب الناس ليس كحب الناس، وإن عطاء الله أحلى وأعذب من كل مايمتلكه الناس.

ـ آسفة ياخالة فقد أيقظتك من نومك وأخذت من وقتك الكثير.

ـ لا داعي لذلك، فقد كنت سعيدة بتذوق نوع جديد من قيام الليل؛ أشكرك كثيراً لأنك نبهتيني إلى تقصيري بحق بناتي، بنات هذا الجيل الذي لم نعرف كيف نقدم له الحب والرعاية؛ أو نروي ظمأه.

ـ حقاً؟! هل أطمع في أن تأذني لي بالاتصال بك مرات أخرى؟

ـ بكل سرور.

ـ ولكن لا أعرف رقمك.

ضحكت وأعطيتها رقم الهاتف. فقالت: وأي الأوقات يناسبك؟

عدت إلى الضحك وأنا أقول:

ـ وهل يناسبك غير الدوام الليلي؟ ضحكت وقالت: فعلاً، وأرجو أن لا أزعجك.

ـ أهلاً وسهلاً بك في كل وقت.. والآن لنسرع في إدراك ركعتين قبل الفجر، وإلى اللقاء ياعزيزي؟

أغلقت السماعة وقلبي مفعم بالأسى من لهؤلاء الأيتام حقاً.. الذين حرموا تفهم الأب وسعة صدره، وقلب الأم ودفقة حنانه؟! من يروي عطش هذا الجيل؟!

بعد أن غادرت الطيور أعشاشها

تمتمت بحزن: حقاً لقد أقبل الخريف، ثم اتكأت على النافذة وأطلقت لأفكارها العنان، وهي تراقب زحف الخريف واكتساحه لكل شيء.

وجه السماء قد فقد بريقه، وكسته الغيوم بغلالة من كآبة. أشجار الحديقة تودع أوراقها التي عبث بها الخريف حتى غدت هشيماً أصفر.

الأشجار بدت كأشباح حزينة ملتاعة بعد أن غادرت الطيور أعشاشها، ورحلت إلى حيث تبني لنفسها أعشاشاً جديدة.

الفراخ الصغيرة قد كبرت، وامتلأت شباباً، فتركت مهد الآباء وانطلقت لتبني عشها وتستمتع بربيعها، تاركة الخريف وراءها. ساءلت نفسها:

ـ وماذا بعد أن أقبل الخريف، وغادرت الطيور أعشاشها؟

بالأمس تزوج آخر أولادها وغادر البيت إلى عشه الجديد، والسعادة تغمره.. وهكذا خلا البيت من الحركة، وتسلل برد الخريف إلى أنحائه، وشحبت زواياه وأركانه.

طافت بالغرف تتأمل الأماكن التي كانوا يجلسون فيها، دولاب الثياب، خزانة الكتب، طاولة الدراسة، مشبك شعر لطيف نسيته إحدى بناتها أمام المرآة، تناولته بلهفة ومرت عليه بأصابعها بحنان..

فتحت دولاب ابنتها الكبرى فطالعتها غلالة نوم قديمة تركتها عند زواجها؛ سحبت الغلالة بين ذراعيها وأخذت تشمها.

جلست أمام المرآة وذكريات الماضي تكتسح كل كيانها هاهو ابنها يطيل الوقوف أمام المرآة ليتأكد من أناقته وحسن هندامه؟! ويضحك وهو يسمع تعليقاتها اللاذعة على وقفته هذه..

سمعت صوت أقدام سريعة تصعد السلم، آه لقد حان وقت الانصراف من المدارس، وهبت من مقعدها لتفتح

الباب لابنتها، لابد أنها قد عادت من المدرسة كعادتها متعجلة تنوء بحملها وتخطف السلم بخطواتها السريعة..

ثم تهاوت على مقعدها من جديد، والدمعة في عينها والغصة في حلقها.. أحست بقلبها يقفز من بين ضلوعها مع صوت الأقدام الصاعدة، ثم يرتطم على جدار الخيبة الجليدي.

هتفت بحرقة: رعاك الله يابنتي في عشك الجديد، رعاكم الله ياأولادي جميعاً..

صحت من شرودها على لفحة نسيم بادرة، فقامت إلى النافذة، وأغلقتها وعادت إلى المرآة، حقاً لقد أقبل الخريف، بياض الشيب قد غزا شعرها، ووجهها قد فقد كثيراً من نضارته بعد أن ظهرت فيه خطوط محراث الزمن وعاد السؤال إلى إلحاحه: وماذا بعد؟!

لقد أنهيت رسالتك، كبر الفراخ، وغادروا البيت إلى أعشاشهم.

لقد انتهى دورك، ولم يبق أي مبرر للبقاء في هذا البيت.

لقد زوجت بغير إرادتك، وعبثاً حاولت التفاهم مع

زوجك، لقد كنت وإياه على طرفي نقيض؛ لم يتجانس فيكما طبع ولا ميل. ولكن الفراخ بادروكما ولم يتركوا فرصة للخيار، وهكذا أقنعت نفسك بضرورة الصبر حرصاً على الصغار ألا يتشردوا. لقد صممت على الاستمرار لاقتناعك بأن بقاء العش ـ ولو كان قليل الدفء ـ أفضل للصغار، وهكذا مضت السنوات وأنت صابرة، تبتلعين كل عقبة، وتخدعين نفسك ومن حولك بمظاهر الرضا والسعادة، وهذا ماجعل زوجك في أغلب أحيانه راضياً لا يحس بمشكلة في بيته، فهو على سجيته، لم يفكر بتغيير طباعه والتخلي عن بعض العادات السيئة فيه لأنه رجل، وينبغي لزوجة الرجل الشرقي أن تتقبله وترضى به على علاته، بل وأن تشعره بأنها سعيدة بذلك؛ لله كم صبرت أيتها الأم.

أسندت مرفقيها إلى طرفي الأريكة، وألقت برأسها إلى الوراء في استرخاء.

شريط الذكريات يتلاحق في ذهنها، ودموعها تنساب على خديها، وهي تتعجب أمام كل حادثة. كيف استطاعت أن تصبر كل هذا الصبر؟

تمتمت: لك الحمد يارب، فلقد كنت ملجأي وملاذي كنت إذا طفح الكيل لجأت إليك باكية شاكية متمثلة قول التي قالت:

نحن الحـــرائـــر إن جار الـــزمـــان بنـا
لم نشـــكِ إلا إلى الـــرحمـــن بلوانـــا

وعنـدك كنت أجـد العـزاء، ومنك كنت أستمد القوة والثبـــات. فلك الحمـد كما أعنتني حتى أكملت دوري، وهـاهم أولادي قد انطلقوا كل منهم إلى عشه وحياته. لا تعكـرهم مشكلة كبرى، ولا يقض مضـجعهم تصدع في نفوسهم وأفكارهم؛ فهل تسمح لي يارب بالانصراف وماذا بقي عليّ بعد أن غادرت الطيور أعشاشها؟! ولكن إلى أين أنصرف؟ لقد فات قطار العمر، وأقبل الخريف ومن بعده شتاء الشيخوخة، ولم يبق لي من دور أو ملاذ إلا أن أبذل نفسي في الـتـعلم والتعليم، حتى أنقلب إليك وأنت عني راض.. رباه.. أعنتني في الماضي فخذ بيدي وأعني حتى أبلغ رضاك.

صحت من أفكـارها على قرع الباب، ونفحها ساعي

البريد رسالة من إحدى بناتها المسافرات، فتحتها بلهفة، وانطلقت روحها تنهل من الكلمات الحبيبة رحيقاً جديداً.

أمي الحبيبة:

بكيت كثيراً قبل أن أكتب لك هذه الكلمات..

لا أدري ماذا أكتب، فالأحرف تقف في حلقي وتجرح وجداني.

قبل قليل كنت أشاهد تمثيلية مؤثرة عن الأم. ذكرتني بك يا أمي الحبيبة. كم دفعت من عمرك من أجلنا، وكم آسيت وضحيت وبذلت دون أن نشعر بدموعك أو نقدر آلامك. ترى أي شيء في العالم يمكن أن يعوضك عن تعبك وتضحياتك من أجلنا؟! ونحن مستمرون في النكران وفي إتعابك معنا ومن أجلنا.

كنا عندك فتيات؟ والأن أصبح لنا أطفال وبدأنا ندرك معنى الأمومة، ومع ذلك لا نقدر على منحك شيء من الراحة والسعادة؛ نزورك مع أطفالنا لنزيد في مسؤولياتك ومتاعبك، وأنت تتجاوزين وتكافحين، ولا تفكرين بنفسك.. كم ضايقناك بمشكلاتنا وشغلنا بالك بهمومنا

وأنت تحتملين وتصبرين وتعانين من أجلنا . .

أرجوك ياأماه سامحينا ، وادعِ لنا فدعاؤك نور لنا .

اذكرك الآن وأنت ساهرة في فراشك تتقلبين وكأنك على شوك ، تفكرين بمشاكل كل واحد فينا ، تذرفين الدموع ، وتتضرعين إلى الله ، وتنتظرين منه الفرج . أذكرك وأنا أعمل ، وأخدم ابني ، وافكر بك أنت التي ربيتنا نحن الخمسة تربية نفخر بها على غيرنا ، علمتنا حب القراءة والصبر عليها ، تلقينا منك كثيراً من أمور ديننا دون بذل جهد يذكر منا .

كثيراً ما أذكر فضلك علينا وأنا أقرأ القرآن مجوداً بيسر وتلقائية ، بل وأنا أجيب على أصعب الأمور الفقهية وآتي بالدليل دون تحضير مسبق ، بل وأنا أناقش في الأمور المختلفة وأقيم الحجة . . أفكر : من أين لي هذا؟!

هل سهرت الليل حتى تكونت لديّ تلك القدرات؟ هل تعبت واجتهدت؟!

أبداً ، لقد أخذت عصارة فكرك ، ونَمَوْتُ كطفيليّ على جذعك المتين .

والآن، وقد انفصلت عنك أخشى على نفسي التراجع وإن كنت أحس أنك قد غرست في أعماقي الدأب ووضعتني على أول الطريق.

كنا نستمد منك القوة والطموح، وأنت صابرة على جحودنا ومتاعبنا.

والآن أشعر بشعورك؛ حين أنسى كل تعبي عندما أسمع طفلي يقول: ماما، ويعانقني بذراعيه اللطيفين، والحب يتلألأ في عينيه.

أبي وأمي، يا أجمل حب عرفته الدنيا، وأصدق عاطفة وأنبل إحساس، وأرق شعور وأعظم تضحية.. يا أحبَّ الناس إلى قلبي وأقربهم إلى نفسي وأشدهم إحساساً بي، يا من تعبتم وماشكوتم.. يا من تزهدون بعطاءاتكم الكبيرة وهي أعظم من أية مأثرة وأرسخ من الجبال.

إنني أقف عند أقدامكما لأرجو الرضا والدعاء.. ولا أظن قلبيكما الكبيرين يضنان علي بذلك.

جزاكما الله عني خير الجزاء بما ربيتماني وأحسنتما تربيتي وبنى لكما عنده بيتاً في الجنة، ورزقكما وافر الرزق. لكما مني

أعطر تحية، وأرق قبلة على خدك الرقيق ياأمي، وعلى لحيتك الخشنة ياأبي، وأحلى سلام ياأحب الناس..

ابنتكما التي لا تنساكما

قلبها يخفق بروح جديدة، وهي تتشبث بحنان بأوراق الرسالة التي بللتها بدموعها.

قامت إلى النافذة ففتحتها من جديد، وحملت إليها ريح الخريف اللطيفة رذاذ مطر تساقطت قطراته على وجهها واختلطت بدموعها، أغمضت عينيها منتشية، فقد أحست أن هذه القطرات قبلات أولادها.. وصدق الله:

﴿**اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها**﴾. [الحديد: ١٧].

حمداً لك يارب، فقد جعلته خريفاً بهيجاً...

مرابطـــة

توقفت ليلى حائرة لبرهة وهي تغلق حقيبتها فقد تبين لها أنها لا تحمل من القروش ما يكفي لركوب وسائل النقل. فهل ترجع إلى البيت؟

هاتف ملؤه الكبرياء هتف بها من أعماقها: لا لن تعودي. صممت أن تقطع الطريق سيراً على الأقدام حتى تصل إلى بيت أهلها، لن يأخذ هذا من الوقت أكثر من نصف ساعة. ولعل أعصابها تهدأ خلال ذلك فإنها لا تحب أن تراها أمها على هذه الحال.

كان الشارع هادئاً نسبياً ونسمات الخريف لطيفة، والشمس قد مالت برأسها نحو الغروب.. ومع ذلك فقد بدا لها كل شيء مظلماً وكئيباً.

طفرت الدموع من عينيها وهي تتذكر الكلمات القاسية التي وجَّهها إليها زوجها متهماً إياها بالإهمال لشؤون بيتها

والتفريط بحق زوجها وأولادها. كل ذلك لأنه أراد أن يرتدي قميصاً معيناً من قمصانه، فصادف أنه كان بحاجة إلى غسيل!!

وتطور به الغضب حتى زعم أن وجودها لم يعد له مبرر في البيت!!

لم تطق صبراً! التفت بجلبابها وخرجت من البيت لا تلوي على شيء...

ينبغي أن يفهم أنها لم تتزوج لتكون خادمة له. كيف يجرح كرامتها بهذا الشكل؟!

كيف يتهمها بالإهمال وهي التي تجري طول النهار، تسابق الزمن وراء أعمال البيت وشؤونه، وحاجات أولادها الأربعة ومتاعبهم؟!

وهنا شعرت بغصة، وتساءل قلبها، وماذا عن أولادك ياليلى؟ هل تستطيعين التخلي عنهم؟! ولكن صوتاً أقوى نبرة في نفسها هتف بها: ليرعاهم أبوهم. أليس هو المسؤول الأول عنهم؟! ألم يزعم أنه لا مبرر لوجودك؟! إلى متى تكدحين ياليلى ولا تقابلين إلا بالجحود؟! لقد آن لك أن

تستمتعي بوقتك وشبابك، وهناك بين أمك وأبيك تعيشين معززة مكرمة. فقد طالما عبّرا عن ألمهما لإرهاقك؛ كم ستفرح أمك التي كانت تردد متحسرة: ليلى جوهرة، ولكنها لم تحظ بالتقدير المناسب. شعرت بقوة الغضب تشد من عزمها، فحثت خطاها.. البيت مازال بعيداً، والسماء تشاركها غضبها وقد ضرج الغروب صفحة وجهها.

ارتفع صوت المؤذن يدعو الناس للمثول بين يدي الله: حي على الصلاة، حي على الفلاح.. رأت مسجداً صغيراً يتوسط الطريق، وقد فتح أبوابه مرحباً بأفواج المؤمنين والمؤمنات.

نظرت في ساعتها، الطريق طويل، والمغرب غريب، ولقاء الله حبيب.

دلفت إلى المسجد ونفسها تردد «**أرحنا بها يا بلال**».

.. ذابت النفس حناناً وهي تحس أنها تلجأ إلى كنف الله وتتفيؤ ظلّ عرش الرحمن. إنه أحلى وأشد أمناً من صدر الأم في وقت الشدة وصوت الإمام يرتل بعذوبة:

﴿**يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله**

لعلكم تفلحون﴾. [آل عمران: ٢٠٠].

تساقطت الكلمات على قلبها المكلوم تساقط الندى، وأحست أن الله الذي أحاط بحالها علماً يناديها: ﴿**اصبروا وصابروا ورابطوا**﴾.

لبيك يارب، فإنك لا تأمر إلا بما فيه الخير. لبيك يارب.. كل شيء يهون في سبيل رضاك.

غسلت الدموع عينيها وقلبها، وهي جالسة في بيت الله تستروح كلام الله. وما زالت الآية يتردد صداها في العقل والنفس ﴿**اصبروا وصابروا ورابطوا**﴾. إنه التكليف الرباني ياليلى.. لقد وضعك الله على ثغرة من ثغر الإسلام فكيف تتخلين عن مكانك؟ كيف تركت الثغرة مكشوفة معرضة للهجوم؟! وكيف ترضين بالهزيمة أمام شيطان الكبرياء؟! أولادك الآن؛ من يذكرهم بأداء الصلاة؟!

من يقص عليهم القصص التي تحببهم في الصلاة؟! من يتفقد واجباتهم المدرسية ويستذكر لهم دروسهم؟! من يغرس فيهم حب الخير والخلق الحسن؟!

كيف سيتناولون طعام العشاء؟!

كيف سيأوون إلى فراشهم وقلوبهم منكسرة وعيونهم حائرة تبحث عن صدر الأم الحنون؟!

كيف ستنام الصغيرة بدون حكاية المساء، وقبلة المساء؟

هل يستطيع أبوهم أن يقوم بكل ذلك؟!

قد يركب رأسه ويتزوج من أخرى، فهل تستطيع الأخرى أن تقدم القلب الحنون؟!

هل تصبر على متاعبهم أم تدفع بهم إلى الشارع والتشرد، حيث تتلقفهم أيدي الشياطين؟!

وكيف تتوقعين من الغريبة أن تصبر وقد فقدتِ - أنتِ أمهم - صبركَ؟!

الله . . . الله في أولادك ياليلى، المرابَطة المرابطة فإن الشياطين تتسارع إلى الثغرة التي تركتها مكشوفة بدون حراسة . .

هبت من جلستها مذعورة. وسارعت تلتقط حذاءها وتغذ السير عائدة إلى عشها وصغارها .

وفتحت الباب وصوت بكاء الصغيرة يلذغ قلبها. ثمانية

أيدٍ غضة حبيبة أحاطت بها تعانقها. والأسئلة البريئة تنطلق بلهفة:

ـ أين كنت يا ماما؟

ـ لماذا ذهبت؟

ـ لا تتركينا يا ماما.

ـ يا إلهي غفرانك، كيف سوّلت لي نفسي أن أترك هذه النفوس الغضة للضياع؟!

ضمتهم بقوة إلى صدرها وهي تقول: أيها الأحبة؛ تعالوا نؤدي صلاة شكر لله على رعايته وهدايته.

رن جرس الهاتف، وجاءها صوت زوجها يلقي التحية، ردت بهدوء.

سكت برهة، ثم قال مرتبكاً: آسف جداً لما بدر مني ياليلي.. كنت متأكداً أنك ستعودين.. فأنت كما عهدتك دائماً عاقلة ومتسامحة.

أمـــي فـــي الوظيفـــة

ـ إلهـام، أخبريني بالله عليك ماذا بك؟ لقد كان حالك اليوم عجيباً، كنت أراك تارة في شرود باسم، وأخرى وقد استخفـك الـطرب، يخال الناظر إليك أنك تطيرين فوق الغمام وتعانقين السحاب.

ـ أبداً ياغادة لا شيء، سأكلمك فيما بعد، مع السلامة.

أغلقت غادة سماعـــة الهـــاتف وقـد لاحـظت ارتبـاك صديقتها؛ تساؤلات عدة، كانت تطوف برأسها؛ ماقصة إلهام؟! لقد تغيرت أحوالها في هذه الأيام. فهي ساهمة في الفصل (الصف)، حالمة في الفسحة (الفرصة). تستدرك تتمة واجباتها المدرسية بنقلها من بعض زميلاتها.

نظرت غادة في الساعة. هل مازالت تشير إلى الرابعة؟ هل توقفت عقاربها؟! تنهدت:

ـ أربع ساعات بقيت حتى تعود أمي من عملها.

قامت إلى الثلاجة وفتحتها، وطاف نظرها في أرجائها. لا شيء يثير الاهتمام. أغلقتها بضيق وتلفتت حولها. الحوض مملتىء كعادته بالأطباق والأواني التي تحتاج إلى تنظيف. وطافت في ذهنها صورة أمها وهي تعدل من هندامها بعد الغذاء وتخطو نحو الباب بعجل وهي تقول:

حبيبتي غادة، تفرغي لدروسك، لا تشغلي نفسك بأي عمل. سأنظف الأطباق عندما أعود. لقد أعددت لك القهوة لتساعدك على اليقظة في الدراسة.

مع السلامة يا عزيزتي.

وصفقت الباب خلفها فلم يكن الوقت يسمح لها بسماع أي رد. فقد ارتفع صوت بوق السيارة يستعجلها. وأبوها يكاد يتأخر عن عمله. وبعد دقائق خرج أخوها سامي أيضاً إلى أصدقائه كعادته. بقيت هي وحدها. تناولت فنجاناً من القهوة وأخذت تدور به في أرجاء البيت تدقق النظر في الغرف والأثاث، كمن يبحث عن شيء. ولا يدري ماهو!!

واستقر بها المقام أخيراً في غرفة النوم أمام صورة أمها،

فأخذت تناجيها:

ـ حقاً إنكِ امرأة عظيمة يا أمي، إنك تتعبين كثيراً من أجلنا، وأنت في سباق دائم مع الزمن. وهو لا يسمح لك أن تقفي لحظات لتسمعي كلمات الشكر والحب منا. فتحت عيني على الدنيا وجدتي تحوطني بحنانها. فقد كنت أنت تكدحين في سباقك مع الزمن لتساعدي أبي في شراء البيت والأثاث الفخم والسيارة الأنيقة والمركز المحترم، والوجاهة بين ا لناس، ولكن جدتي ماتت وأنا بعد طفلة؟ فمات قلبي معها، ومرت الأيام، وملأت المدرسة بعض فراغي.

قطع رنين الهاتف حبل أفكارها فأسرعت إليه، إنه أحد أصدقاء سامي. يا لشقاوة هؤلاء الشباب العابثين إنهم لا يكفون عن المعاكسة. لكن أمي علمتني الكرامة والعفاف. وأغلقت السماعة بيد مرتجفة وضجيج دقات قلبها يملأ الفراغ من حولها.

قامت إلى النافذة ففتحتها، وجاءت نسمات ندية منعشة، الربيع يطرق الأبواب، والدنيا تستعد لاستقباله. وجه السماء مغضن ببعض الغيوم الفضية التي تتسرب من

خلالها أشعة الشمس الباهتة. ترى أين أنت الآن ياسامي؟ لقد أصبحت تخرج كثيراً في غياب والديك. وخاصة بعد أن لمح لك أبي بإنه لا ينشرح لدخول أصدقائك إلى البيت أثناء غيابه حفاظاً على سمعة البيت وكرامته. ترى هل تذاكر حقاً مع أصدقائك كما تزعم؟! لقد حدثت أمي مساء أمس عن خروجك وغيابك، وقلقي عليك. فقالت وهي تندس في فراشها منهكة:

ـ لا تقلقي يا عزيزتي، سأهتم بذلك، ثم إنه نشأ في بيت طيب ومحترم فلا خوف عليه.

لاشك أن أمي على حق ولا شيء يدعو للقلق. حتى لو انـزلقت إلى معاكسة البنات مثل أصدقائك. فماذا يحصل بعد ذلك؟! هزت كتفيها بلا مبالاة.

ـ حسن، لنفكر في الدروس، ماهي واجبات الغد؟! وقبل أنت تسترسل في تفكيرها ظهر على النافذة المقابلة ابن الجيران والبسمـة تزيده وسـامة. ورفع يده محيياً. فأغلقت النافذة بسرعـة وقلبهـا يكـاد يقفز من صدرها. هربت إلى كتبها ودفاترها ولكن رنين الهاتف يزعق بالحاح. رفعت السماعة

فجاءها صوته :

ـ لماذا تغلقين النافذة في وجهي ؛ نحن جيران ، وأنا احترمك وأعاني من الوحدة مثلك ؛ أرجوك لا تغلقي الخط ؛ أريد أن أسألك عن مسألة في الرياضيات لا تكوني بخيلة .

أغلقت السماعة . لابد أنه سيحاول مرة أخرى . قامت إلى شريط الهاتف وفصلته . أحست بالبرودة تسري في أطرافها . لم تستطع أن تفهم سبب ذلك فالجو لطيف . قامت تبحث عن شيء تتدثر به . وواجهتها صورتها في المرآة .

فتاة كالبرعم تتفتح . دماء الشباب تتفجر في وجنتيها . وصدرها الناهد يلهث هلعاً مما يدور فيه . حقاً إنه فتى وسيم . ماذا لو استمعت إليه؟! قد يكون بحاجة إلى مساعدة . إن أهله طيبون . منذ أن سكنوا هنا لم يسمع عنهم ما يريب . إن له حق الجوار . لمَ لا تعتبره صديقاً لها؟!

أسرعت إلى الهاتف لاهثة . وصلت الخط واتصلت بأمها في وظيفتها ، إلى أن جاء صوت أمها ، فهتفت :

ـ أماه ، أرجوك إنني بحاجة إليك .

فردت الأم بلهفة : مابك ياحبيبتي ، هل أصابك مكروه؟

ترددت غادة ماذا تقول لأمها؟! وخرج صوتها مضطرباً: لا شيء يا أمي، ولكني أرتجف من البرد.

ـ المدفأة جاهزة ياعزيزتي، لقد ملأتها بالوقود، وما عليك إلا أن تقدمي لها عود ثقاب.

ـ ولكن البيت موحش ياأمي، وأنا بحاجة إليك.

ضحكت الأم وقالت: ياطفلتي المدللة، لقد أرعبتني. ظننت أن مرضاً قد فاجأك. هيا حدثيني كم بقي عليك من الواجبات المدرسية؟

ـ لم أدرس شيئاً بعد ياأمي، أرجوك تعالي، إنني بحاجة إليك.

ـ كيف يمكن أن آتي قبل انتهاء الدوام بثلاث ساعات!؟

غادة اسمعي ياحبيبتي، أنت عاقلة ومجتهدة في الدراسة. وإنني أعدك إذا نجحت بتفوق في هذا العام بسوار ذهبي أجمل من الذي جئتك به في العام الماضي.

ـ لا أريد سواراً، أريدك أنت ياأمي.

فقاطعتها أمها: غادة أرجوك لقد عطلتني عن العمل، ضعي صورتي أمامك وتخيلي أنني معك، فأنا معك بقلبي،

هيا إلى دراستك ياحبيبتي.

أين سامي؟

ـ خرج كعادته منذ خروجكما أنت وأبي.

ـ حسن ياعزيزتي. سيمضي الوقت سريعاً إذا شغلت نفسك بالدراسة. وعندما أرجع سنجلس سوياً ونشرب الشاي. مع السلامة.

ـ أمي أرجوك. أوه لكنها أغلقت السماعة.

التقطت غادة دموعها بسكون وأحست بشيء من السكينة فانكبت على كتبها.

إرتفع صوت تلفاز الجيران. موسيقا تأثيرية وحوار عاطفي. لابد أنه فيلم ظريف. أسرعت إلى التلفاز ففتحته وجلست إليه مشدودة بكل كيانها. يالها من ساعة طارت بها في أحلام وردية مع الحب وفتى الأحلام. وسحر العواطف والكلمات الدافئة... حرارة عجيبة تتوهج من جسمها.

أطل المذيع يقرأ نشرة الأخبار؛ فأغلقت التلفاز وتمددت على الأريكة وأطلقت لخيالها العنان في رحلة فوق السحاب مع فتى وسيم يجوب بها الآفاق، ويملأ قلبها دفئاً بأعذب الكلمات..

انتفضت مذعورة على رنين الهاتف. ترى من المتكلم؟! أهو ابن الجيران؟ هل تستجيب له؟! واستمر الرنين في إلحاحه؛ وهي حائرة. قد تكون إحدى صديقاتها أو أمها. ورفعت السماعة أخيراً فجاءها صوت صديقتها إلهام:

ـ آلو، غادة، ما بالك؟ هل كنت نائمة؟ فعاد إليها بعض مرحها وهي تقول: تقريباً، كنت في انتظار مكالمتك ياإلهام. فهيا حدثيني عن أحوالك.

ردت إلهام بحيوية: وهل تحفظين السر؟

ـ أوَ تشكين في ذلك؟!

ـ أبـداً ياعزيزتي فلو لا ثقتي بك وحبي لك ماحدثتك، اسمعي ياغادة: إني آسفة لأنني لم أستطع أن أشرح لك شيئاً عندما اتصلتِ بي فقد كنت على موعد معه.

ـ مع من؟!

ـ مع وسيم.. خطيبي.

ـ حقاً! مبروك ياعزيزتي، ومتى تمت الخطبة؟

ـ لم يخطبني بعد رسمياً، ولكن اتفقنا على الزواج. فشهقت غادة قائلة:

ـ وهل علم أهلك بذلك؟

ـ لا ياغادة، لا أستطيع أن أخبرهم بشيء الآن. لأنهم لن يقدروا ظروف وسيم. فهو طالب وعليه أن يكمل دراسته، ولا يستطيع أن يتقدم لخطبتي إلا عندما يصبح قادراً على بناء أسرة.

ـ إلهام، كيف تجرئين على ذلك؟! إنك تغامرين بسمعتك وكرامتك.

ـ رويدك ياغادة، إن حبنا طاهر وبريء، وأنا لم أفعل شيئاً يسيء إلى كرامتي. إن علاقتنا مجرد أحاديث على الهاتف ولقاءات عابرة وبعض الرسائل والصور.

قاطعتها غادة بغضب: إلهام إنك تلعبين بالنار؛ فاحذري.

ـ بالعكس ياغادة صدقيني إن الحب هو الواحة الوارفة الظلال في بيداء هذه الحياة، ومن لم يجرب الحب فما ذاق طعم الحياة. إنه عالم آخر ياغادة ننعم فيه بالري بعد الحرمان. لم تغالطين نفسك ياغادة؟ ألا تفكرين بفارس الأحلام؟!

سكتت غادة ولم تحر جواباً فتابعت إلهام:

ـ غادة، ياحبيبتي أتمنى أن تلتقي بفتاك قريباً أتمنى لك هذا من كل قلبي.

وقطعت إلهام موضوعها فجأة. يبدو أنها فوجئت بحضور أحد من أهلها. فقالت:

ـ أشكرك ـ ياغادة ـ على تنبيهي إلى واجب العلوم فلم أكن أعرف أنه مطلوب غداً. مع السلامة ياعزيزتي. وأغلقت السماعة.

جلست غادة إلى كتبها وحاولت جاهدة أن تندمج في الدراسة. ولكن بدون جدوى. شيء ما في داخلها كان يهتف: ما الحب؟ لماذا لا أجرب طعمه؟!

قامت تدور في أرجاء البيت من جديد. ووقفت طويلاً أمام المرآة. تتأمل صورتها وتعدل من تسريحتها.

وتسللت يدها إلى أدوات زينة أمها فجربت أحمر الشفاه والكحل والظلال والعطور. حتى انتشت طرباً أمام صورتها الفاتنة. وقررت أن تجرب؛ فاتجهت إلى النافذة ومدت يدها لتفتحها.

فاجأها رنين الهاتف فتسمرت في مكانها برهة، وزعيقه المروع يتتالى. تمالك نفسها أخيراً ورفعت السماعة؛ فسمعت صوتاً قوياً حازماً يقول:

ـ آلو، هنا منزل سامي...؟

ـ نعم ولكنه غير موجود.

ـ أريد والده لو سمحت.

ـ والده في العمل، ولكن من المتكلم؟!

ـ هنا مركز الشرطة في شارع... هل أنت والدة سامي؟

سقط قلبها وهي ترد بكلمات متقطعة:

ـ لا يا سيدي. أنا أخته. هل أصابه سوء؟

ـ أخبري والدك بضرورة الحضور إلينا فإن سامي محتجز لدينا.

أغلق الضابط السماعة قبل أن يسمع كلمات غادة الذاهلة: ولكن أمي في الوظيفة!!

أيها القاريء الكريم، اسمح لي أن أهمس في أذنك بأسى:

صدقني، إن الواقع أشد فظاعة مما كتبت. فلقد منعني الحياء من عرض تفاصيل الصورة الواقعية المروعة.

هل سمعت آخر الأخبار

أطلت أم عدنان من نافذة المطبخ تترقب عودة أولادها من المدرسة. وللوهلة الأولى لم تستطع أن تبصر الطريق بوضوح فقد كانت شمس الربيع الوهاجة تملأ الدنيا ببريقها... وبعد لحظات انجلى المشهد أمام عينيها.. الطريق مليء بالحيوية والحركة. مَنْ هذه التي تقترب من البناء وقد تأبطت ذراع شاب؟! أمعنت النظر ثم تمتمت بدهشة:

ـ يا إلهي، إنها إلهام ابنة جيراننا!!

هاهي تقف معه في مدخل البناء. تتحدث إليه، وتبتسم له. ويناولها حقيبة كتبها التي كان يحملها لها. شهقت أم عدنان وضربت بيدها على صدرها وهي تقول:

ـ بنات آخر زمان!!

وتسمرت في مكانها وهي تراقب المشهد إلى أن ودعته إلهام. وبقي الشاب واقفاً حتى دخلت بيتها ـ فيما يبدو ـ

في الطابق الأول، وعندها رفع يده محيياً ثم انصرف.
وضعت أم عدنان يدها على رأسها وهتفت وهي تغادر النافذة:
ـ والله ما كان الأمل فيك هكذا يا إلهام؟! صحيح صدق من قال (ياما تحت السواهي دواهي). أسرعت إلى الهاتف تملؤها الحمية، فلابد أن تحذر الجارات الغافلات من صحبة هذه الأسرة الملوثة.
ـ آلو، مرحباً أختي أم غسان، كيف الحال؟
ـ الحمد لله، كيف حالك أنت ياأم عدنان!
ـ في أسوأ حال.
ـ خيراً إن شاء الله.
ـ ومن أين يأتي الخير في هذا الزمان المنحوس؟!
ـ ما الأمر يا أم عدنان لقد أقلقتني؟!
ـ ألم تسمعي آخر الأخبار؟
ـ أخبار من؟
ـ أخبار إلهام بنت الجيران في الطابق الأول.
ـ إلهام!! ماذا حل بها؟ والله إنها (بنت حلال) وتستحق كل خير.

ـ بنت حلال؟! لا تغـرك المظاهر ياأختي أم غسان (ياما تحت السواهي دواهي).

هتفت أم غسان باستنكار:

ـ ماهذا الكلام يا أم عدنان؟!

ـ الآن كنت على النافذة أنتظر الأولاد فرأيتها بعيني (التي سيأكلها الدود) مع حبيب القلب.

شهقت أم غسان وقالت:

ـ ماذا؟!

ـ الله وكيلـك، يدها بيـده، يتحدثان ويضحكـان. فلمـا وصلا إلى باب البناء ناولها حقيبتها ووقف يودعها ويلوح لها، ولم ينصرف حتى غابت عن ناظريه.

ـ هكذا أمام الناس وبكل وقاحة؟! ألم يبق في الدنيا أدب ولا حياء؟!

ـ آخر زمان يا أختي، الله يجيرنا.

ـ أمعقـول أن يصدر هذا عن إلهام؟! لعلك واهمة فربما رأيت فتاة أخرى تشبهها.

هتفت أم عدنان باستياء:

ـ أقول لك رأيتها بعيني، إلهام بلحمها وشحمها.

وكيف أخطىء في معرفتها ونحن جيران منذ سنوات؟!

ـ لعله أحد أقربائهم؟!

ـ أبداً إنه رجل غريب، لم أر وجهه قبل الآن. وأنت تعلمين أن نافذة المطبخ عندي تطل على مدخل البناء وما من داخل أو خارج إلا وأعرف صلته بأصحاب هذه العمارة.

ـ قد يكون خطيبها؟

ـ خطيبها!! ألم نكن بالأمس عند أم أحمد فلما سألنا أم إلهام عن الخطاب، الذين زاروهم منذ أيام، قالت بترفع وقد شمخت بأنفها:

ـ ابنتي الآن لا تفكر بالزواج مطلقاً فهي تعشق العلم وكل همها إكمال دراستها.

ـ صحيح ذكرتني. ولما قلنا لها: (الله يحمي بناتنا من هذا الزمان) قالت: أنا أعرف ابنتي وأثق بها جيداً ولا أخاف عليها الفساد.

تضاحكت أم عدنان باستهزاء وقالت:

ـ تعرف ابنتها جيداً!! ياحسرة عليها عندما تكشف الحقيقة.

ـ وهل ستخبرينها بما رأيت؟

ـ والله ياأختي لا أدري كيف أتصرف! هل أترك الأم مخدوعة بابنتها أم أصدمها بالحقيقة؟! ولكنني رأيت أن أخبرك بهذا الأمر كي تحترسي وتحمي أولادك من خطر العدوى، فقد علمت أن ابنتك سمر تتردد على إلهام أحياناً وتستعين بها في فهم بعض دروسها.

ـ والله يا أم عدنان كنت أظن بإلهام الخير وأقول أنها لا تبخل بمساعدة بنات جيرانها في دراستهن. أما الآن فأنا ممتنة منك يا أختي لأنك فتحت عيني على الحقيقة وكما يقولون: إن التفاحة الفاسدة تعدي جيرانها.

ـ الله وكيلك يا أختي، لما رأيت هذا المنظر شعرت بالدم يغلي في عروقي، وامتلأ قلبي بالخوف على جيراني من هذا الوباء. وشعرت أن من واجبي أن أحذركم، وإلا فإنني كما تعلمين لا أحب مراقبة الناس ولا الكلام على الناس.

ـ سلامتك يا أختي، وجزاك الله كل خير على هذا الغيرة.

قاطعتها أم عدنان بانزعاج:

ـ أشم رائحة حريق. يبدو أنني نسيت الطعام على النار.

أرجوك يا أم غسان أن تتولي إخبار الجيران بالأمر. لأن علي أن أتدبر أمر الطعام.

ـ اطمئني يا أم عدنان سأتولى الأمر، مع السلامة.

نظرت أم غسان في ساعتها، أمامها عشر دقائق قبل أن يعود زوجها إلى البيت. فلتتصل بجارتها أم سمير لتحذيرها فإنها كثيرة التردد على بيت أم إلهام بحكم سكناها في الشقة المقابلة.

ـ آلو، أم سمير أُسعدت مساءً.

ـ يامرحباً بأم غسان، كيف الحال؟

ـ نسأل الله اللطف ياأختي.

ـ خيراً إن شاء الله؟!

ـ أعلمُ يا أم سمير أن الوقت غير مناسب للكلام فربما تكونين مشغولة بإطعام صغارك، ولكن الأمر خطير ولا يحتمل التأجيل.

ـ قالت أم سمير بلهفة:

ـ خير يا أم غسان أرجوك تكلمي فقد شغلت بالي.

ـ جارتنا إلهام ـ الله يحمي أولادك ـ قد لطخت سمعتها

وألحقت العار بأهلها.

شهقت أم سمير قائلة:

ـ ماذا تقولين؟!

ـ إنها تقابل شاباً غريباً دون علم من أهلها. تخرج معه وتعود بصحبته.

ـ غير معقول!!

ـ لقد أقسمت لي أم عدنان أنها رأتهما بعينها.

ـ يالللعار!! ونحن الذين نظنها طالبة علم مشغولة بجامعتها ودراستها!!

ـ أية جامعة، أي علم! إنها تخدع أهلها وتخرج مع حبيبها بحيلة أنها ذاهبة إلى الجامعة.

ـ ولم يكتشف أهلها أمرها حتى الآن؟!

ـ لا أظن، ولكن أمراً كهذا لا يمكن إخفاؤه طويلاً. ومن يدري لعلنا على أبواب فاجعة أو فضيحة.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ قد يكون الشاب قد ضحك عليها، وسرعان ماينبذها ويتخلى عنها، وعندها تصبح المسكينة فريسة الفضيحة والعار.

ـ ياإلهي . ! إلهام تقع في مهاوي الرذيلة؟!
ـ ومن يدري؟ قد تلجأ المسكينة عندها للانتحار.
ـ أعوذ بالله، ماهذه المصيبة؟! ألا نستطيع أن نفعل شيئاً لإنقاذ الموقف؟!
ـ وماذا تفعلين لها وقد اختارت السقوط ومشت إليه برجليها! المهم أن تحمي أولادك.
ـ شهقت أم سمير وقاطعت أم غسان معتذرة:
ـ يا إلهي لقد ضرب سمير أخته الصغيرة لأنها قلبت صحفة الطعام على الأرض ولطخت ثيابها. أرجو أن تعذريني سأتصل بك لاحقاً لأفهم التفاصيل ونتفق على موقف من هذه المشكلة؟ مع السلامة.

لم تضيع أم غسان وقتها وأسرعت تهتف إلى أم أحمد:

ـ آلو، أم أحمد هل سمعت آخر الآخبار؟!
ـ ولكن نشرة الأخبار لم يحن وقتها بعد؟!
ـ أخبار الجيران.

حاولت أم أحمد أن تكظم غيظها وقالت بتهكم ملفوف:

ـ خيراً إن شاء الله!! هل مرض أحد؟ أم مات؟!

ـ ياليت، الأمر أخطر من ذلك بكثير؛ إننا أمام فضيحة ومصيبة كبرى.

وانطلقت أم غسان تحكي الخبر بكل ما أوتيت من بلاغة وحماس، وأم أحمد مشدوهة من جرأتها. إنها تعرف علة جاراتها الفارغات المتسقطات للأخبار. ولكن لم يسبق لهن أن وصلن إلى هذا الحد من القذف في أعراض الناس. وأحست أن الأمر أكبر من أن يعالج على الهاتف فقاطعت جارتها بحزم وهدوء قائلة:

ـ آسفة يا أم غسان فإنني مشغولة جداً الآن سآتي إليك بعد العصر لنتحدث في هذا الأمر، فإن الموضوع أعقد من أن يعالج على الهاتف، مع السلامة يا أختي أغلقت أم غسان سماعة الهاتف وتمتمت بغيظ:

ـ يالطيف ما أثقل دمها. هكذا المتدينات كلهن. الحق علي لأنني أردت نصحها. ونظرت في ساعتها: مابال أبي غسان قد تأخر عن موعده كثيراً. هل حصل له حادث؟! أم انتابه مرض مفاجىء؟ بل لعل له زوجة أخرى؟!

رن جرس الهاتف فقطع عليها سيل الوساوس

والهواجس. فأسرعت ترد، وجاءها صوت زوجها غاضباً:

ـ منذ نصف ساعة وأنا أحاول الاتصال بك دون جدوى ألم تنته أخبار العالم؟! أم كنتم تعالجون مشكلات الشرق الأوسط؟!

ـ الأمر أخطر من ذلك يا أبا غسان، إن بنت الجيران..

قاطعها زوجها صائحاً:

ـ لدي مهمة مستعجلة تأخرت عنها لأنني كنت أحاول الاتصال بك كي لا تقلقي، سأتأخر في العودة إلى البيت، مع السلامة، وأغلق السماعة.

هتفت بغيظ:

ـ أغلق السماعة في وجهي!! ولم يتركني أخبره بالخبر: حسناً سنتحاسب عندما تعود يازوجي العزيز.

وعادت تفكر، من بقي من الجيران لم تخبره؟ بقيت أم صابر التي تمني نفسها بخطبة إلهام لولدها فقد سمعته يثني على (أخلاق) إلهام وأدبها. لابد أن تخبرها لتنقذها من الانخداع بها. وبما أن أم صابر ليس لديها هاتف فلابد من طرق بابها. وأطلت أم صابر من الباب وفوطة المطبخ حول

خصرها. فبادرتها أم غسان: كان الله في عونك، أما زلت في المطبخ! هل أساعدك؟ ردّت أم صابر بأدب لا يخلو من ارتباك:

ـ تسلمي، لقد انتهيت، تفضلي.

ـ لدي موضوع خطير لابد أن أحدثك به ولن آخذ من وقتك إلا دقائق.

ـ تفضلي، وقادتها إلى غرفة الجلوس وهي تخلع (مريلتها) وما إن استقرت أم غسان على الأريكة حتى إلتفتت إلى جارتها قائلة:

ـ ألم تسمعي آخر الأخبار؟!

ـ أخبار من؟

ـ أخبار إلهام بنت الجيران التي خدعت بها أنت وابنك لقد انكشف الحق وتبين أنها فتاة ساقطة. احمدي الله على أن ذلك قد ظهر قبل أن تتورطي بخطبتها. وانطلقت أم غسان تخوض، وتقذف إلهام وعائلتها بأقذع الألفاظ والتهم. وشدهت أم صابر في البداية. لكنها فقدت صبرها بعد برهة أمام هذا السيل المتدفق من العفن. فقاطعت جارتها بتأثر:

ـ حرام عليك يا أم غسان. لقد عشنا عمراً مع هذه العائلة وهم في جوارنا. ولم نر منهم إلا كل خير. !

ـ ولكن أم عدنان أقسمت لي الأيمان المغلظة أنها رأتها معه بعينها. .

ـ قد يكون في الأمر سر لم تطلع عليه أم عدنان. وللبيوت أسرارها وللناس مشكلاتها.

ـ لا يمكن أن نسمح لهذا الوباء أن يبقى بين أظهرنا.

واستمرت أم غسان في حملتها ناسية أن وقت أم صابر ضيق. لأنها ستضطر بعد قليل للخروج إلى وظيفتها. ولكن قرعاً خفيفاً على الباب قطع عليها حديثها. وأطلت أم أحمد معتذرة:

ـ آسفة جداً يا أم صابر، أعلم أن وقتك ضيق ولكنني كنت على يقين أن أم غسان قد أسرعت إليك لتسمعك آخر أخبارها. ورأيت من واجبي أن ألحق بها لأخبرها بآخر خبر لم تسمع به بعد. ونظرت أم أحمد إلى أم غسان نظرات ذات مغزى.

فقالت أم غسان بانفعال وتحدٍّ:

ـ ماذا تقصدين؟!

ـ لقد فكرت في معاجلة الأمر فوجدت أن أفضل عمل أقوم به أن أتفقد جارتي أم إلهام لعلي أفهم حقيقة الموقف وأقدم العون اللازم. وهناك فوجئت بوجود الطبيب لمعالجة ركبة إلهام. فلقد زلت قدم المسكينة بقشرة موز لعل أولاد عمارتنا ألقوها في الطريق؛ فليس غريباً عليهم أن يفعلوا ذلك لأننا قليلاً ما نتفرغ لتربيتهم وتوجيههم. المهم أن المسكينة وجدت نفسها ملقاة على رصيف الشارع. وكتبها مبعثرة على الأرض. فأسرع إليها أقرب رجل منها وقدم لها يد المساعدة، وأبت عليه شهامته وطيبته إلا أن يوصلها إلى مدخل بيتها. ورغم أنها شكرته وتحاملت على نفسها متظاهرة بأن الألم بسيط، فقد رفض أن ينصرف حتى دخلت بيتها واطمأن عليها. وسكتت أم أحمد برهة وهي تتأمل وجه أم غسان الذاهل وأردفت بإخلاص:

ـ سبحان الله..!! أرأيت يا أم غسان. إن الدنيا مليئة بالناس الطيبين!

هتفت أم صابر:

ـ الله أكبر! لقد أكلتم لحم الفتاة وخضتم في سمعة العائلة بغير علم!!

﴿**إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون فأفواهكم ماليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم**﴾. [النور: ١٥].

التفتت أم أحمد إلى أم غسان التي اصفر لونها وانعقد لسانها وقالت بإشفاق:

ـ ليتنا نتذكر وصايا ربنا في الوقت المناسب بدلاً من التفاخر بالإسلام، والقلب الطيب.

﴿**ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم**﴾. [الحجرات: ١٢].

رسالة مفتوحة إلى الشباب المؤمن

ـ صفية، أيتها العزيزة، أنت أختي وأحب لك كل خير. اسمعي نصيحتي ولا تتزوجي.

هكذا كانت تقول هند لأختها الصغرى بحرارة وصدق.

حدقت صفية بأختها هند مدهوشة، بينما هتفت أختها الكبرى هالة مستغربة:

ـ هند أتمزحين؟!

هزت هند رأسها قائلة:

ـ أبداً، إنني جادة كل الجد؛ إن صفية فتاة ذكية وطموحة تطفح بالحيوية والفعالية، ولها آمالها العريضة. وأنا أخاف عليها أن تخبو آمالها وتذوي حيويتها.

ـ أنت المتدينة تقولين هذا الكلام!! ألم يحض الإسلام على الزواج؟!

ـ إن أحكام الإسلام لا تؤتي ثمارها إلا في مجتمع إسلامي

متكامل، وبين أناس يأخذون الإسلام كله ولا يقتطعون منه رقعاً يزينون بها أنفسهم كما يفعل المسلمون اليوم.

ـ ولكن الخاطب مؤمن ملتزم بأمر الله، قد سألنا عن دينه وخلقه حتى رضينا!!

قلبت هند شفتها وقالت بمرارة:

ـ مؤمن ملتزم!! ألم أتزوج أنا مِنْ مؤمن ملتزم؟!

نظرت هالة إلى هند بحنان وقالت لها بود هادىء رقراق:

ـ منذ زمن وأنا ألحظ أنك لست على مايرام وأتمنى أن أطمئن عليك، وكنت أخشى أن أزعجك بسؤالي. وها أنت الآن قد أثرت الموضوع فتكلمي أرجوك. فقد يعقّد السكوت الأمر ويضغط على المشاعر حتى تسبب وخزاً مؤلماً.

ـ تنهدت هند وقالت:

ـ عندما تزوجت غمرتني السعادة حتىٰ خلت نفسي أحلق في عالم آخر مليء بالطهر والود والعطاء. كنت أحس أنني قد انطلقت في رحلة الآمال مع زوجي بعيداً عن التخلف والتخاذل والركود، بعيداً عن عالم الأخطاء والغفلة لنحقق نموذجاً جديداً، ونقوم بأعمال كبيرة. كنت أظن أنني بدأت

أستروح حياة الصحابة، ولكن ياأختاه!! كم آلمني أن أتبين شيئاً فشيئاً أن الشاب المؤمن بعيد عن عالم الصحابة.

لم تستطع هالة أن تكظم سؤالاً ساخراً انزلق من ثنايا بسمتها:

ـ وهل وجدت الفتاة المؤمنة قريبة من عالم الصحابيات؟!

تساءلت هند بشيء من الغضب:

ـ ماذا تعنين؟!

قالت هالة بإخلاص:

ـ لم أقصد الإساءة أو الإدانة أبداً، بل أردت أن ننظر إلى واقعنا بشكل موضوعي.

ـ لقد حاولت في زواجي أن أتأسى بمواقف الصحابيات، فقبلت بصالح زوجاً وفضلته على الآخرين لأنني أعطيت الأولوية للدين والخلق، وحاولت الالتزام بالبساطة في كل إجراءات الزواج.

ـ ومع ذلك فإن قبولك بصالح ليس كقبول الأنصارية الجميلة بجليبيب الذي لم يكن يملك مالاً ولا حسباً ولا جمالاً، حتى اعترض أبواها على هذا الزواج، لكنها وعظتهما

وأقنعتهما. فلو كان صالح مثل جليبيب هل كنت تقبلين به؟

لا تتسرعي في الكلام ياعزيزتي. وحاولي أن تضعي نفسك في الموقف تماماً.

سكتت هند تفكر، فتابعت هالة:

ـ ولا أنكر أنك توخيت البساطة في زواجك وبيتك ولكن كيف كانت بيوت الصحابة؟ وكيف كان طعامهم؟ هل حاولت أن تضعي نفسك في مثل تلك الحال التي وصفت بها بيوت أمهات المؤمنين، قد يمر الشهر ولا يوقد في بيوتهن نار. وأكثر طعامهن الأسودان التمر والماء؟!

ـ بل إن الرجل الآن لا يرضى بالبساطة في الطعام وهو الذي يطلب التنويع والأصناف التي تتطلب وقتاً وجهداً.

ـ أنا معك في هذه. ولكنها من رواسب البيئة. ولا تظني أن بإمكان المرء أن ينخلع دفعة واحدة من تأثير البيئة.

ـ ولكن الصحابة كانوا يخلعون الجاهلية بكل مافيها عند إسلامهم!!

تدخلت هنا صفية قائلة:

ـ فكيف قال النبي ـ ﷺ ـ لأبي ذر عندما أخطأ مع بلال:

«إنك امرؤ فيك جاهلية»!!!

لست معك ياعزيزتي في نظراتك المثالية إلى الصحابة. فلقد كانوا بشراً يخطئون ويتوبون. وليسوا ملائكة ﴿**لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون**﴾. لقد مكث رسول الله ـ ﷺ ـ فيهم قرابة ربع قرن وهو يربيهم ويصحح أخطاءهم ويحررهم من آثار الجاهلية. فكم من مرة أخذتهم حمية الجاهلية ورسول الله بينهم يهتف بهم: «**أبدعوى الجاهلية وأنا بين ظهرانيكم**»؟! وكم ارتكبوا من أخطاء مع المرأة في نظرتهم ومعاملتهم، والقرآن ينقد ويصحح ويقرر في الأذهان مرة بعد أخرى كرامة المرأة وحقوقها. وهل نسيت قول الله تعالى: ﴿**قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله**﴾ وقول عمر: (كنا لا نعد للنساء شيئاً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ماقسم. فبينا أنا في أمر لي آتمره، إذ قالت لي زوجتي: لو فعلت كذا وكذا. فقلت: وما شأنك أنت ولما ههنا؟ وما تكلفك في أمر ليس لك؟!).

قالت هند:

ـ أنا معك في كل هذا. ولكن الصحابي كان يتقبل النقد

ويرجع إلى الصواب. بينما المؤمن الآن لا يتقبل النقد مهما كان مخطئاً وخاصة من زوجته. ابتسمت هالة وقالت:

ـ ومن منا يقبل النقد؟! كوني واقعية ياعزيزتي. فإن النقد مرٌّ على الجميع، وخاصة على نفس الرجل إذا توجه إليه من زوجته. لقد ضرب الصحابي أبو رافع زوجته لأنها نبهته ـ حينما أراد الصلاة ـ أن وضوءه قد انتقض. ولم يصدقها حتى سأل رسول الله ـ ﷺ ـ! إن الرجل بفطرته يشعر أنه رئيس الأسرة. ولا يريد لصورته الوقورة أن تهتز ويلحق بها شيء من الانتقاص. ويهمه أن يحافظ على صورته البراقة الرائعة في أعماق زوجته. ويزعجه جداً أن تظهر أنها أعلم منه ولو ببعض الأمور لأنه يظن أنه سيفقد احترامها. وخاصة عندما تشعره زوجته أن خطأه جسيم..

ولهذا يخلق النقد عنده ردة فعل أعنف، لما يشعر به من خيبة أمل زوجته فيه.

ـ معنى ذلك أن نسكت عن الأخطاء. ونبتلع الواقع كما هو؟!

ـ أبداً لم أقصد هذا. ولكن لماذا نحترس مع الناس فلا

نقدم لهم النقد إلا في أشهى طبق. بينما نرمي به في وجه أعز إنسان لدينا؟!

لمَ لا نستنفر ذكاءنا في هذا المجال؟!

وهل بدأنا من الحسنات قبل نقد السيئات؟!

وأهم نقطة أن ننظر إلى الأمر ببساطة، ولا نحلّق وراء المثاليات فمن الطبيعي أن يكون لزوجك عيوبه وأخطاؤه. كما أن لك عيوبك وأخطاءك.

ـ أعلم أن لي أخطائي. ولكنه لا يسكت عنها. بل أصبحت أشعر أنه لا يرى فيّ غيرها. فهو لا يكاد يعجبه شيء. لقد أصبحت أحن إلى الكلمة الطيبة الودودة وأفتقدها، ويؤلمني إحساسي بأنه ربما يكون نادماً على الزواج.

التقطت هند دموعها وقد احتبس الكلام في فمها فضمتها هالة إلى صدرها بحنان وقالت:

ـ لا بأس عليك يا حبيبتي اهدأي. وحاولي أن تفكري بتجرد حتى تصلي إلى السبب.

وقد يكون زوجك مخطئاً في أسلوب نقده. ولكن هل

حاولت سماع نقده بهدوء؟!

فلابـد أن نبدأ من أنفسنا ونغير موقفنا من النقد. وإن الاعتراف بالخطأ شرط أساسي للتصحيح وتحقيق التوبة.

ـ ولم تطلبين مني أن أقبل ما لا يقبله هو؟! أليس من واجبه هو أيضاً أن يراعي مشاعري؟! أليست القوامة مسؤولية ورعاية؟!

ألا يعني تكليف الرجل بها أن يكون هو أكثر موضوعية واقتداراً على مواجهة المشكلات؟!

ـ أرى أننا قد تراجعنا إلى طريق الحقوق؟!

وأخذنا نفكر في واجب الطرف الآخر!!

هل تتوقعين حل المشكلة بانتظاره حتى يؤدي واجبه!!

سكتت هند وأخذت تتأمل وجه أختها هالة الحبيب.

ـ حسن، وماذا يمكنني أن أفعل؟!

ابتسمت هالة بود وقالت:

ـ لقد فعلت حتى الآن أموراً كثيرة خيرة لأسرتك ومن أجل أولادك. وإنني لشديدة الإعجاب بك. إذ أنك حتى الآن لم تحاولي أن تحدثي والديك أو أحداً منا عن متاعبك. إذ أن

الـوالـدين والأهـل كثـيراً ما يتحيزون لابنتهم وتـدفعهم عواطفهم إلى مواقف خاطئة أقلها خطراً هو تغير قلوبهم على صهرهم. وبينما يصطلح الزوجان وينسيان، فإن الأهل لا ينسون. وبهذا تتوسع دائرة المشكلة. عزيزتي هند إنك مؤمنة وعاقلة. وإنك أمّ يدفعها الحرص على أولادها إلى مزيد من التضحية والعطاء. فتعالي نعيد النظر في مواقف زوجك.

لِمَ لا يكون السبب فيها هو شعورك أنت؟

إن خيبة الأمل تظهر في ملامحنا وتطل من خلال كلماتنا فتؤثر فيمن حولنا. وقد يأتي زوجك متعباً مهموماً من عمله ـ والتعـامل مع الناس من أصعب الأمور ـ فهل تستقبلينه بجذل صادق؟ هل جربت أن تكوني مشرقة تنعكس الفرحة والسعادة من قلبك إلى وجهك؟!

حاولي أن تتـذكري في تلك اللحظة أن عميد أسرتك وشريك حياتـك قد عاد سالمـاً من كل ما يحيط به في هذا المجتمع المتخلف المنحرف من مخاطر. عند ذلك ستبدو لك عودته اليومية عيداً حقيقياً.

تنهدت هند وقالت:

ـ ولكنك نسيت أني غارقة في عمل البيت وهمّ الأولاد. إن مشاغل الأسرة ياهالة قد حرمتني من الدراسة الجامعية. وأحس أنني أخطأت حين تعجلت الزواج قبل أن أتابع دراستي، فقد كان بإمكاني لو تابعت تحصيلي أن أواجه الحياة بنضج أكبر وأقدم لأولادي تربية أفضل؛ وأخدم ديني بدلاً من الخمود والعطالة التي وصلت إليها.

ـ الآن بدأت أفهم سبب خيبة أملك التي عكرت جو عشك، عزيزتي هند، قد أوافقك على كل ماقلت. ولكن هل تجدي الحسرة بشيء؟ ألم يقل رسوله ـ ﷺ ـ: «**إن لو تفتح عمل الشيطان**»؟ لقد كنت تحلمين قبل زواجك بخدمة الإسلام بطريقة معينة، وهي التحصيل الجامعي. ثم تغيرت الظروف وحالت بينك وبين المتابعة؛ فشعرت بالإحباط والخيبة. وكأن الإسلام لا يخدم إلا بالشهادة الجامعية أنسيت أن تربية جيل جديد هي أخطر مهمة يمكن أن تقدمها المرأة لمجتمعها؟!

أنا معك ياعزيزتي بأن العلم هو الحاجة الأساسية لنا، وبدونه لا تتحقق نهضتنا، ولا نعرف كيف نؤدي دورنا

كدعـاة ومربين. إذ أن غرس القيم والأخلاق الحميدة في نفـوس الأبنـاء تقتضي منـا أن تكـون كل كلمة لنا معهم مدروسة. وكل تصرف مبني على قياس العواقب. ولكن هل العلم مقصور في الجامعة؟ هند، لابد أن تكيفي نفسك مع الظروف الجديدة وتبحثي عن الطريقة التي تلائم أحوالك، كي تتابعي الدراسة والعطاء.

ـ صدقيني لا أجد الوقت الكافي للقراءة، ولا أجد صلاح البال.

ـ عجبـاً، لو كنت تتكلمـين مع من لم تجرب لعذرتك. ولكنني زوجة وأم، وأعرف معنى الحياة العائلية ومعنى أن تكوني أماً وزوجة وربة بيت.

أعرف ياهند أن ما أطلبه منك ليس سهلاً. ولكنه كذلك ليس مستحيلاً. فتنظيم الوقت والعمل وحذف مالا ضرورة له من الأعمال والمشاغل يمكن أن يوفر وقتاً يومياً للقراءة.

ـ كيف يمكن ذلك؟!

ـ حسـن، أولادك أولاً يجب تنـظيم نومـهم ويقـظتهم وطعـامهم ولعبهم، ويؤخـذون بالحـزم في تعـويدهم على

النظام، فلابد من أن يناموا باكراً حتى يتمكنوا من اليقظة باكـراً، فإنهم قريباً سيلتحقون بالمدارس، وهذا يتيح لك بعض الوقت للقراءة في المساء.

ـ ولكننـا نضطر أحياناً للقيام بزيارات مسائية فيتأخرون معنا ويختل النظام.

ـ إذا كانت الزيارات ضرورية لأداء واجب اجتماعي، فإما أن تذهبي معهم قبل أن يحل وقت نومهم؛ أو تذهبي بعد نومهم وتختصري في الزيارة.

ـ وأتركهم وحدهم في البيت؟!

ـ فاعتذري إذن عن الزيارات والواجبات الاجتماعية فإنها كلها أقل خطراً من تربية أولادك وضرورة تنظيم حياتهم. وعـوديهم على النظام في لعبهم فلا يقلبوا البيت رأساً على عقب أثنـاء لعبهم. وذلـك بالـترغيب وذكـر القصص والحكـايات التي فيهـا قدوة حسنـة. وليكن الترهيب آخر أسلوب وخـاصـة العقاب. إن هذا ولو أتعبك في البداية يختصر عليك جهـداً في تنـظيم البيت ويعـطيهم عادات حسنـة. ثم اختزلي في تحضير الطعام فهناك أصناف كثيرة

سهلة التحضير ومغذية ولذيذة.

ـ قد لا يعجب ذلك زوجي؟

ـ يمكن أن تأخذيه بالكياسة واللطف، وصدقيني إن الكلمة الطيبة والابتسامة المشرقة، وجعل البيت مصدر ارتياح وسكينة هو أهم عند الرجل من أطيب الوجبات. وإنه لابد أن يقدر مشاغلك ومتاعبك.

ـ لكنني مستاءة من انشغاله الدائم في عمله. كنت أتصور في البداية أننا سنقرأ معاً ونتدارس، ونقوم بأعمال اجتماعية مفيدة، ولكنه غارق في عمله يعود متعباً..

وقد تكون له أعمال إضافية ينجزها في البيت.. وهكذا أصبحت أشعر بأننا قد توقفنا ولم نعد نقدم شيئاً لدعوتنا.

ـ لا ياعزيزتي لا ينبغي أن نسيء فهم الإسلام بهذا الشكل. إن التزام الرجل بمبادىء الإسلام أثناء عمله هو أكبر دعوة له. وأن قيامك بشؤون أسرتك وأولادك هو أعظم خدمة.

أنسيت: «**إن حسن تبعل إحداكن يعدل كل ذلك**». إن رعاية الزوج وتربية الجيل يعدل الجهاد في سبيل الله. وهل

هناك جهاد أعظم من حماية الأسرة المسلمة من الغزو الفكري ؟

ـ ولكننا بحاجة إلى العلم والقراءة كي نقوم بكل ذلك.

والحقيقة أن هذه ليست مشكلتي وحدي فقد سمعت عدداً من صديقاتي يشتكين من هذه الظاهرة عند أزواجهن فالزوج المؤمن لا يخصص لزوجته وأولاده وقتاً يقرأ معهم فيه . . حتى أن بعض زوجات الدعاة وبناتهم لا يحسنّ قراءة آيات من القرآن.

إن الشاب المؤمن حتى الآن لا يدرك تماماً معنى القوامة. إنه لا يخصص وقتاً يومياً لرفع مستوى الوعي في أهل بيته. فهو إن قرأ يقرأ وحده.

ظهر الأسف على وجه هالة وصفية . . وساد السكون لحظات ثم قالت هالة :

ـ أنا معك ياهند في كل ذلك، ولعلي أبعث برسالة مفتوحة إلى الشباب المؤمن في يوم من الأيام. ولكن المهم أن يبدأ كل منا من واجبه فيحاول أداءه على أحسن وجه، وعندها لابد أن تأتي الحقوق.

هل حاولت المرأة أن ترفع مستوى اهتمامها؟!

هل بذلت جهدها كي تفرغ شيئاً من وقتها وجهدها للقراءة والعلم؟!

هل هيأت الظروف لزوجها كي يشاركها ويهتم بالتدارس معها!!

تنهدت صفية وقالت:

ـ لقد جعلتماني أستثقل فكرة الزواج فعلاً.

قالت هالة:

ـ لقد كان من الضروري لك أن تسمعي كل هذا، فإن الزواج ليس أحلاماً وردية معطرة. بل إنه مسؤولية ثقيلة بقدر ما نؤدي منها تعطينا من السعادة والهناء.

ليس عيباً أن نحلم بالسعادة، وليس عبثاً أن نتصور عالماً أفضل، ولكن البارع فينا من يستطيع أن يقرب الشقة بين الأحلام والواقع، فيضع الخطة السليمة التي توصله بالدأب المستمر إلى تحقيق بعض أحلامه.

تساءلت صفية:

ـ ولكن ألا تشعرين بضخامة العبء الذي كلفنا به؟!

تأملت هالة أختيها بحنان. ولاحت في عينيها دمعة تأثر وهي تقول:

ـ لقد تعبت أم المؤمنين خديجة ـ رضي الله عنها ـ كثيراً لقد بذلت مالها وجهدها في سبيل الله، وكانت الزوجة الوفية والأم الرؤوم، ليس لأولادها فقط، بل لكل المسلمين. لقد فتحت لهم بيتها وقلبها عندما كتبت قريش صحيفة المقاطعة ضد المسلمين، وقبل ذلك كله، لقد وقفت إلى جانب زوجها محمد ـ ﷺ ـ حين جاءته الرسالة وقفت إلى جانبه وهو يتصدى لحمل الدعوة التي كان العالم كله يناوئها. وقفت تقول له بثقة وثبات:

(اثبت يابن عم. فو الله إنك لتصل الرحم وتفعل وتفعل. وإن الله لن يخزيك أبداً فجاء جبريل عند وفاتها يبشرها: ببيت من قصب لا تعب فيه ولا نصب).

ألا تطمعان باللحاق بها..؟

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
جيل العطش	٧
بعد أن غادرت الطيور أعشاشها	٢٧
مرابطة	٣٧
أمي في الوظيفة	٤٣
هل سمعت آخر الأخبار	٥٥
رسالة مفتوحة إلى الشباب المؤمن	٦٩